في بساتين الضلوعية وبلد

لا تزال صورة الطيارين العراقيين ماثلة لأبناء مدينة بلد في محافظة صلاح الدين أثناء حرب الخليج الثانية عام 1991 حيث تنبهوا إلى وجود اعداد غفيرة من الطيارين العراقيين وهي تتجول في الاسواق والشوارع على غير هدى وتزجي الوقت في التطلع إلى بضائع محالها الفقيرة.
بينما كانت المناطق الزراعية القريبة تشهد حركة غير معتادة تمثلت في طائرات تجرها تركتورات زراعية داخل البساتين الكثيفة لتخفيها بين الاشجار والمنخفضات وكانت هناك خيام تنصب من قبل جنود بلباس أزرق- هو لباس من يعمل في القوة الجوية العراقية ٤٠٠ طبيب عراقي مختص يقيمون في بريطانيا لتتخذ منها مناطق حراسة لهذه الطائرات التي ضاقت بها السماء والارض في الوقت نفسه.

تركتورات زراعية تجر طائرات مقاتلة!

عبد الزهرة المنشداوي

كان مرأى الطيارين وهم يتجولون دون هدى قبيل اندلاع الحرب بأيام قليلة بينما طائراتهم كالحيوانات الهاربة من عدو شرس لا سبيل إلى تفادي شره سوى الاختباء منه- يؤشر إلى أن الامور تسير نحو هاوية سحيقة لا سبيل للخروج منها.

صقور في الاسواق وطائرات في حفر!

وكان هذا آخر ما انبثق من الذهنية العسكرية التي توصل اليها (القائد الضرورة) للاحتفاظ بهذا السلاح الجوي الذي لم يشأ له أن يتصدى لمقارعة دول التحالف آنذاك بل كان قد خطط للاحتفاظ به لمعركة أهم يخوضها ضد شعبه في الجنوب والشمال. وكان له ذلك عندما توقفت الحرب فعادت التركتورات الزراعية لتسحبها ثانية من الحفر والبساتين وتعود بها إلى قواعدها القريبة ولكن لتملأها بالأسلحة والصواريخ لتعلو ثانية فوق الأرض لتوزع حممها ضد الشعب.

وتشاء الصدفات أن يتكرر المشهد ثانية بعد مضي نحو اثني عشر عاماً وفي نفس الامكنة، بساتين الضلوعية القريبة من بلد في اخرجت هذه الطائرات من قاعدة البكر التي تبعد 40كم من بلد تسحبها تجرارات الزراعية ثانية وتوزعها بين الحفر والاشجار فكأنها جثث طيور معدنية ضخمة من تلك الطيور الخرافية التي تستخدمها هوليود في انتاج افلامها الخيالية.

ولكن لم يكن هناك من طيارين يتجولون بالقرب منها او خيام تنصب لحراستها بل تركت في العراء. وبقاياها الآن هناك في مشهد يثير ما يثير من شتى ضروب الشاعر.

(لقد جاؤوا ببعض من هذه الطائرات من قاعدة في كركوك وتركوها هنا، وطائرات من قاعدة البكر) هذا ما أفاد به إبراهيم السلطان من سكنة الضلوعية.

وأضاف «عندما سقط النظام تنبه البعض إلى أن ابدان هذه الطائرات من معدن يقبل عليه التجار ويدفعون ثمناً لا بأس به لكل قطعة يمكن أن يستطيع فلاح فصلها وحملها إلى التجار الذين توافدوا فجأة بسيارات حمل كبيرة جاؤوا وانضم إلى الحديث سائق يعمل على خط سامراء- ضلوعية قائلاً:

- هناك الكثير من الطائرات العمودية يسمونها طائرات القادة. وقد تم انتزاع ريشها الدوارة بعد أن توافد الكثير من تجار الخردة لابتياع ما يتم انتزاعه منها. هناك العشرات من الطائرات وقد استطعت تعداد 28 طائرة في ناحية يثرب وحدها ورأيت الناس "يفصخونها" لتباع أجزاؤها بالوزن.

ودفعني مشهد ثلاث طائرات جاثمة قرب كوخ فلاح، وهي من طراز ميغ12، للتوجه اليه وسؤاله ولم يتردد الرجل في الحديث وأخبرني أن عملية تفكيك الطائرات باتت عملية تقليدية يومية إذ يتم تقطيع ابدانها بالشعلة الحرارية وقال بعفوية (سمعت بأن هذه الطائرات مصنوعة من "لفافون" الذي يباع لعامل قدور الطبخ والاواني)!

• وهل رأيت من غير العراقيين يقصدون هذا المكان ليبتاعوا ما يمكن أن يباع منها؟

- رأيت بعضهم يسأل عن أشياء أخرى يسمونها الفواحص وارشدهم الآخرون إلى أنها توجد في القواعد القريبة من هذا المكان ولا اعلم ما هي الفواحص التي يريدونها ولكني لم أرهم بعد ذلك.

وعن مكان محركات هذه الطائرات الآن ذهبت توجهنا بالسؤال إلى إسماعيل البلداوي وهو سائق أيضاً لديه بستان جعل مخبأ لطائرة فأجاب بأنه قد رأى عسكريين كانوا ينتزعون محركات ضخمة ويأخذونها. وآخرين يقومون بتفكيك بعض الطائرات إلى أجزاء قبيل بدء الحرب ولا يعلم إلى اين ذهبوا بها.

وما كان أمامنا إلا أن نقصد أحد الطيارين الذين كانوا ضمن قاعدة البكر وهو برتبة مقدم طيار لم يشأ الافصاح عن اسمه، وبدا الاثر النفسي المتولد لديه نتيجة ذهاب تلك الايام الخوالي التي كان يجوب فيها سماء العراق وما آل اليه مصير تلك الطائرات الحربية وكل ما استطعنا أن نستخلصه منه أنه بل اندلاع الحرب كان الطيارون تدريب مستمر استعداداً للمواجهة ولكن الذي حدث إن قوات الاحتلال دخلت الأرض العراقية ولم يتسلم الطيارون من (القيادة) أية أوامر للمواجهة على الرغم من أن القواعد قد تحركت فيها طائرات ميك 25 المتطورة والمعدة للمواجهة والذي حدث أنها ضربت في مدرجاتها بأسلحة أدت إلى انصهارها!!

أما عن تلك الطائرات التي اخفيت في بساتين الضلوعية ويثرب فأوضح أن أغلبها طائرات "ميك 21" وهي تعد خارج الخدمة وقد أمروا بإخلائها قبل اندلاع الحرب.

وعن الطائرات التي أطلقت عليها تسمية طائرات القادة قال: إن عددها 28 طائرة وهي في الحقيقة طائرات نقل نوع (سينكا) الاميركية وطائرات (وازير) وكذلك طائرتان من نوع سيخوي وهي كل ما بقي بعد أن ذهبت ثلاثة أسراب دون عودة في عام 1991 عندما ارتأى صدام انزالها فوق الاراضي الايرانية. والذي تم تدميره في قاعدة البكر ثلاثة أسراب من طائرات ميك 23 بعض الشيء وتم التدريب عليها بارتفاعات عالية.

وأشار القدم الطيار إلى أن الاسلحة التي وجهت من القوات الامريكية لم تقصد سوى الطائرات التي لها القدرة على المواجهة أما باقي الطائرات التي خارج الخدمة فلم تصب أو تستهدف إلا من قبل الأهالي الذين انتزعوا أبدانها لبيعها على شكل قطع على تجار الخردة.

وعن عروض قدمت لشراء هذه الطائرات بالوزن قال: نعم كانت هناك عروض ليس على الطائرات فقط وإنما لكل هياكل السلاح العراقي تقدمت به شركات تركية لغرض صهرها.. ربما! وإعادة تشكيل معادنها، لكن الطلب الذي يلح عليه هؤلاء هو اجهزة فحص الطائرات التي بيعت منها اعداد كبيرة بعد أن اقتحم الاهالي القواعد العسكرية، فهذه الاجهزة يمكن استخدامها في فحص كفاءة الطائرات من كل الانواع قبل الطيران ولذلك تعتبر مهمة واسعارها لا يمكن تحديدها.

من المسؤول عن تدني المستوى العلمي والمهني للأطباء المقيمين؟

الأطباء الشباب في قفص الإتهام

هدى الأغا

برغم حالة الأعياء الشديدة التي كنت أمر بها بسبب حالة تسمم ألمت بي الا أنني كنت واعية لما يدور حولي في طوارئ مستشفى (....) وبرغم ضيق التنفس الذي أشعر به استطعت أن التقط حيرة الطبيب الشاب (المقيم) في ذلك اليوم كنت أنازع الموت بسبب قلة الاوكسجين في دمي وكنت بحاجة إلى أسعاف فوري الا أن الطبيب المقيم كان سارحاً بوجهي وكأنه كان يتذكر في أية صفحة من صفحات كتاب (حالات وأعراض التسمم) وأين يا ترى ذكر العلاج وفي اي سطر، ومن هو الاستاذ الذي شرح المادة... وحين تذكر كل تلك الملاحظات أمر بنقلي الى ردهة الطوارئ ووضعي تحت الاوكسجين! هذه حالتي وحالة العشرات من المرضى الذين يضطرون لمراجعة المستشفيات وخصوصاً خارج أوقات الدوام الرسمي إذ لا يوجد في أقسام الطوارئ وردهاته غير الاطباء المقيمين أو لنسميهم (المجربين)!

وقد تكون تسمية (المجرب) قاسية بعض الشيء أو هي ترجمة عامية للكلمة (المتدرب) ولكن الا تتفقون معي بأن كل المهن تخضع للتجربة الا الطب لنقل إن ثمن التجربة في كل المهن هو ازياد الخبرة أما في الطب- وفي شروط متدنية من الخبرة- فيعني زيادة أعداد الموتى!

حالات أخرى

التقيته في طوارئ مستشفى النعمان عند الساعة الثامنة صباحاً وعلى وجهه ابتسامة ساخره.. وقلق وخوف وهو يهز يده فسألته عن حالته فأجابني:

- ليست حالتي وإنما حالة أبي لقد تعرض لوعكة مفاجئة في منتصف ليلة أمس ويبدو أنها علامات جلطة دماغية.. نقلناه بصالغ الصعوبة إلى المستشفى ولما وصلنا وجدنا الطبيب الخافر مشغولاً بحالة أخرى وحين التفت الينا كان ابي قد جاءته الحالة مرة أخرى إلا أن الطبيب لم يسعفه بل راح يضربه بيديه على وجنتيه ويهزه من كتفه كما فعلنا نحن معه في البيت! ثم تركه وانصرف. وحين أفاق ابي خرجت تواً للبحث عن سيارة أجرة لأقله إلى البيت إذ قررت أن أعرضه على طبيب مختص عندما يأتي المساء!

الأطباء المختصون يرفعون اصبع الاتهام

لم تكن شكوى الأطباء ذوي الخبرة والأختصاص لتختلف عن شكوى عامة الناس فحين طرحت الموضوع على هؤلاء الاساتذة سارعوا في بث شكواهم من مستوى الخريجين الجدد وكانت هذه أراؤهم واقتراحاتهم لمعالجة تدني المستوى العلمي للأطباء المقيمين:

- الدكتورة انتصار التويجري معاونة المدير العام في مستشفى النعمان وضعت اليد على الجرح مباشرة بقولها:

- ..أطباء اليوم لا يريدون أن يتعلموا ففي عقولهم تزدحم أفكار ورغبات وآمال تتصارع مع الرغبة في العلم ولمنع هذه الحالة التي تؤدي إلى وقوع ضحايا واضرار اقترح على وزارة الصحة أن تسن قانون اختبار الاطباء الذين ينهون دورتهم في أقسام المستشفى حتى نتمكن من الوقوف على ذكائهم وكفاءتهم ورغبتهم وعلى أساس هذا الاختبار يتم تحديد اختصاصهم والقسم الذي سيعملون به!

أما الدكتور أسعد محمد اختصاص أمراض باطنية وأستاذ محاضر في كلية الطب- الجامعة المستنصرية ففي قلبه لوعة من المستويات العلمية للطبقة الخريجين فهو يقف يومياً على حقيقة وأسباب تدني علم الجيل الجديد، يقول:

- تقوم الكليات الطبية كل عام بقبول مجاميع كبيرة من الطلبة دون أن تنظر وتدقق في مستوياتهم ورغباتهم وطريقة تفكيرهم وسلوكهم وبالنتيجة يتخرج سنوياً مئات الطلبة الذين لا يتوفر بهم اي شرط مهني او علمي او انساني! أو نلمس يومياً كيف يستغل هؤلاء مهنتهم لتحقيق أهداف أخرى غير علمية.

ومثل هؤلاء لا يعرفون الانسانية ولا يتعاملون على أساسها مع المريض لذا اقترح على الكليات أن تنظم اختباراً علمياً ونفسياً (وأخلاقياً) للطالب المتقدم كما اقترح أن يعاد النظر بأسس القبول والعدد فما فائدة أن تفتح كل يوم كلية الطب في قرية أو ناحية في المحافظات دون أن تتوفر الأسس العلمية الصحيحة للتدريس فالأساتذة في هذه الكليات عددهم قليل جداً فكيف سيتمكنون من تدريس جميع المواد وبكفاءة للطلبة هذا بالإضافة إلى سلوكيات بعض الطلبة ففي الجامعة المستنصرية هناك مكاتب استنساخ تقوم بنسخ محاضرات كل المواد وتبيعها للطالب الذي يصحو من نومه عند منتصف النهار ثم يرتدي ملابسه ويتجه إلى هذا المكتب ليشتري منه المحاضرات بدل أن يتجه إلى قاعة المحاضرة وبعدها يتسكع في النادي وحدائق الكلية فكيف للمجتمع أن يأتمن هذا الطبيب على مرضاه!

رأي الطلبة

مجموعة من طلبة كلية الطب / جامعة بغداد كانوا منشغلين في القراءة استعداداً للدخول إلى قاعة الامتحان بعد نصف ساعة ورغم انشغالهم وقلقهم إلا انهم تحمسوا للسؤال الذي طرحته عليهم وتقبلوا النقد بصدور رحبة لا بل أيدوا الكثير مما طرحه الأطباء المختصون من آراء بحق الطلبة المقيمين والخريجين.

الطالب حيدر قصي قال: صحيح إن هناك بعض الطلبة قد دخلوا الجامعة دون أن يكونوا بمستوى علمي يؤهلهم لذلك على الرغم من ان معدلاتهم عالية وقد تجاوزت الثلثة لأسباب نعرفها جميعاً! و لكن هل أن الطالب وحده يتحمل المسؤولية؟ فهناك أيضاً بعض الأساتذة الذين لم يجددوا معلوماتهم كما إن طريقة تدريسهم قديمة ومملة. هناك أستاذ يقوم بوضع السلايدات على ماكنة العرض ويعيد قراءتها علينا ثم ينصرف بعد انتهاء المحاضرة وفي المقابل هناك أساتذة نحرص بالجلوس في المقاعد الأمامية لنكون قريبين منهم.

أما الطالب سيف عبد الحسين فيطرح معاناة الطلبة ومشكلاتهم ويرى بأنها السبب في تدني مستواهم العلمي.

- هل يعقل أن تقوم الكلية بقبول (300) طالب هذا العام؟ وهم يحضرون جميعهم محاضرة واحدة في قاعة واحدة ولكون (الجثث) قليلة وعدد الطلبة كبير أفان عدد الطلبة الذين يحظون بجثة واحدة يبلغ (60) طالباً علماً إن أحدث جثة عمرها عشر سنوات وآخر جثة وصلت الكلية كانت عام 1993. وهي بدون أطراف وبدون أمعاء! فكيف تريدون لهذا الطالب الفاشل أن يكون طبيباً ناجحاً.

أما الطالب ياسر أوس فله ملاحظات أخرى:

- طرق التدريس قديمة والمراجع والمصادر قديمة وقليلة والجثث قديمة وقليلة فضلاً عن الظروف الاقتصادية التي تعيشها عائلة مستلزماته، هذا مع العلم أن العديد من الطلبة لم تكن لديهم رغبة كافية لدراسة الطب فأغلبهم يدخلون الطب أما تلبية لرغبة الأهل أو للمفاخرة والمباهاة كما أن المستقبل الغامض الذي ينتظر الطالب سبب آخر في فشله فنحن قد سمعنا أن آخر وجبة تم تعيينها مركزياً هي الدورة التي تخرجت العام الماضي فاين سيكون مصيرنا نحن طلبة المرحلة الأولى؟

طالب آخر رفض ذكر أسمه نبهنا أيضاً إلى أمور أخرى:

- لقد تربى الطالب العراقي على مبدأ واحد وهو (أدرس حتى أنجح) ولم يحدثنا أحد عن الدراسة من أجل أن نتعلم وندرك ونفهم هذا من جهة، ومن جهة أخرى ادعوكم لزيارة الاقسام الداخلية للطلبة فستجدون البرد والجوع والتعب والحاجة إلى الخدمات والمستلزمات بانتظاركم! ولا تنسوا أن تذكروا وزارة التعليم العالي بضرورة التأكيد على الزي الموحد فعند مدخل كلية الطب سيجدون البنات لابد وأرجو أن لا تسيئوا فهمنا فنحن لسنا ضد الأناقة والجمال ولكن فضولنا دفعنا للسؤال: وكيف لهذه الطالبة المتبرجة جداً أن تجد الوقت لدراسة هذه (البلاوي) في كتب.

رأي العمادة

في النهاية للمنا أو رقنا ومشاكلنا ووضعناها على طاولة المسؤول الأول لنختتم بها محطتنا الطبية، ووقفتنا كانت مع المعاون العلمي لكلية الطب جامعة بغداد الدكتور زياد طارق حمدي الذي رحب بفكرة الموضوع ووضع النقاط على الحروف:

- في البداية يجب أن لا ننسى بأننا نتعامل مع مشكلة جيل كامل وليس مع جيل كلية الطب فقط، فمنذ سنوات وشبابنا لا يعرف ماذا يريد، فليس له هدف معين ولا رغبة محددة غير الرغبة النادية السيطرة على عقول أبنائنا. الكثير قد دلجوا عالم الطب لأنه في نظرهم يشكل مصدر ثراء إلا أن السنوات الأخيرة الماضية أثبتت لهم وبأسهم وتخبطهم، فقد وصل راتب الطبيب التخرج حديثاً الى (3) الاف دينار مما جعل الشباب التخرج يفكر بطرق أخرى لزيادة ثرائه وتحسين وضعه المادي وهذا أثر على (هيبته) كطبيب وعلى شخصيته ومن ثم تدنت نظرة المجتمع له، فبالإضافة إلى شكاوى الناس من مستوى الأطباء المقيمين فإنهم لم يعودوا ينظرون إليهم نظرة وقار ورهبة كما كنا نفعل في السابق! كما أن غياب القدوة في حياتهم أثر فيهم ففي السابق كان آباؤنا وأساتذتنا هم قدوتنا ونتمنى أن نكون مثلهم أما الآن فليس هناك شخص محدد في خيالهم يكون قدوتهم فضاع الهدف لديهم!

أما عن المعاناة التي تعرض لها الطبيب في السنوات الأخيرة الماضية فهي كثيرة منها:

منع السفر والزام الخريج بقانون التدرج الطبي الذي أشعر الطالب بأنه يضيع شبابه وعمره في القرى للوصول إلى وضع يتمناه له، ولعائلته كما أن الحصار قد أثر على توفر الدوريات والمجلات والكتب العلمية الحديثة فبين الحين والآخر يشارك أحدنا بمؤتمر علمي ويحرص على جلب كتاب أو أكثر معه ونقوم بتداوله بيننا. وهذا دفع بالطبيب إلى الشعور بعزلته عن العالم الخارجي الذي يزخر بالتطور العلمي والتكنلوجي ولهذه الاسباب وغيرها تحول الطب في نظر الشباب إلى مجرد وظيفة وليس مهنة لها أصولها واخلاقيتها كما إن الأطباء الشباب لشغلوا مثل شباب المهن الأخرى في تغليف أنفسهم بقشور التحضر لجديدة وابتعدوا عن جوهر العلم.

وحول بعض التصرفات السلبية التي قام بها بعض الأطباء وأثرت بالتالي على مكانة الطبيب في المجتمع يقول الدكتور زياد:

- بسبب الارتباط القسري بأداء الخدمة العسكرية ومنع الأطباء من السفر وسوء الأوضاع الاقتصادية راح بعض الأطباء يتصرف بطرق تسيء إلى أخلاقيات مهنتهم مثل الترويير في الأوراق الرسمية والجوازات أو ابتزاز الناس مادياً وبسبب الاوضاع الاقتصادية ايضاً راح الطلبة يؤجلون السنة تلو الأخرى حتى يتمكنوا من إعالة عوائلهم.

أما موضوع المناهج ومشكلات الكلية ونقص المستلزمات فلها حديث آخر عن الدكتور معاون العميد العلمي إذ يقول:

لقد تأسست الكلية عام 1957 وهي ثاني اقدم كلية طب في الشرق الأوسط بعد كلية طب دمشق وقد خرجت العديد من الأطباء الشهورين بعلمهم بحيث لفتوا أنظار أساتذة وأطباء الغرب بذكائهم وتفوقهم إلا أن معظمهم وبسبب الظروف القاسية ترك الوطن وأجبر على الرحيل إلى دول الغرب وقد لا يعلم القارئ أن عدد الأطباء العراقيين المختصين المنتمين إلى الجمعية الطبية في بريطانيا يبلغ (4600) طبيب عراقي وجميعهم مقيمون في لندن وهذا العدد يفوق عدد الأطباء داخل العراق.

وحول موضوع نقص المستلزمات التعليمية والطبية وتأثيرها على مستوى الكلية يؤكد الدكتور زياد على سعي الكلية في سبيل توفير كل المستلزمات خصوصاً وأن الكلية قد تعرضت إلى السلب والنهب والحرق ومن غير المعقول أن يعاد الوضع كما كان عليه أو أفضل منه بين ليلة وضحاها ووعد الدكتور زياد المسؤولين والناس والرضى بأن يكون العام القادم بداية لمسيرة علمية صحيحة للطب في العراق.